واو الثمـانيـة ..
بين التخريج النحوي وسياقات الاستعمال

الدكتور عبد العليم بوفاتح
كلية الآداب واللغات – جامعة الأغواط – الجزائر

.." Waaw al thamaaniya "
between grammatical explication and contexts of use.

Dr. Abdelalim Boufatah
Faculty of literatures and Languages – university of Laghouat-Algeria

ملخص :

يعالج هذا المقال قضية واو الثمانية في الاستعمال اللغوي العربي. وهي وجود واو تأتي بعد ذكر سبعة أشياء، وموضعها قبيل الثامن منها، بحيث تكون مقترنة به. وقد تجلت هذه الظاهرة اللغوية في آيات من القرآن الكريم. ولمجيئ هذه الواو مع الثامن أطلق عليها بعض النحاة والأدباء والمفسرين "واو الثمانية".

وبما أن لها وظائف أخرى نحوية ودلالية، تباينت آراء العلماء والباحثين حولها قديما وحديثا، إذْ أثبتها بعضهم وأنكرها آخرون، بينما سكت بعضهم عن ذلك واكتفى ببيان وظائفها النحوية وما لها من اللطائف البلاغية والمزايا الأسلوبية التي تتجلى في تعدد سياقاتها.. وسيتولى هذا المقال دراسة هذه الظاهرة وما قيل فيها مع الترجيح والتصحيح.

Abstract :

This article examines the issue of the term (waw al thamaaniya) in the Arab linguistic usage and the presence of this word " waaw " comes after mentioning seven items in addition to its place ahead of before the eighth item, which is associated with it. This Linguistic phenomenon is manifested in some verses from the Holy Quran. Because the coming of this word"waw"with the eighth, some grammarians, writers and commentators called it (waaw al thamaaniya).

As it has other syntactic and semantic functions ,the views of scientists (grammarians and researchers) differed about it in the past and present, Some of them corroborated it and others denied it ,while others kept silent about it and only made a statement of its grammatical functions and its rhetorical secrets besides its stylistic features which are reflected in multiple contexts .. This article will examine this phenomenon in additionto what has been said concerning it, with outweighting and correction.

قضية واو الثمانية.. تحديد وتمهيد :

واو الثمانية هي ([1]) واو تأتي بعد ذكر سبعة أمور إمّا بِعَدّها مرتبةً أو بالإشارة إليها وتسبق الثامن منها. ولمجيئها مقترنة

---

(1) – يرجع في هذا الموضوع إلى : البرهان : 189/3 ؛ والإتقان : 180/1 و الكشاف : 410/3 ، والجنى الداني في حروف المعاني ص167 وما بعدها وبصائر ذوي التمييز 476/1 ؛ ومغني اللبيب 417/2 ؛ وبدائع الفوائد 42/3

مع الثامن أطلق عليها بعض النحاة والأدباء والمفسرين " واو الثمانية ". وشاهدهم في ذلك ما ورد من القرآن الكريم في قوله تعالى: { التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف **والناهون عن المنكر** } [التوبة/ 112] فقد جاءت الواو مقترنة بالصفة الثامنة ولم تأت قبلها؛ وقوله تعالى:{سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة **وثامنهم كلبهم** } [الكهف/22] فالواو ارتبطت بالثامن من الأعداد من دون غيره؛ وقوله تعالى: { وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤوها **وفتحت أبوابها** } [الزمر /73]. فالواو عندهم ذكرت مع أبواب الجنة لأنها ثمانية أبواب، ولم تذكر في الآية التي قبلها مع أبواب النار لأنها سبعة. وكذلك في قوله تعالى:{ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات **وأبكارا** } [التحريم /5] اقترنت الواو بالصفة الثامنة ولم تقترن بالصفات التي قبلها.

هذه هي الآيات التي استدل بها من أطلقوا على هذه الواو واو الثمانية، وأثبتوا لها هذه التسمية تمييزا لها من غيرها كواو العطف أو واو الحال أو واو الاستئناف.. بينما نفى آخرون وجود واو تسمى " واو الثمانية " وأثبتوا لها وظائف نحوية، كالحال والعطف والاستئناف. ([1])

وتجدر الإشارة إلى أن الذين ردّوا واو الثمانية منهم من كان ردّه لها شديداً صريحاً للمصطلح والفكرة من أساسها، ثم يأتي التعليل تابعاً لذلك، متخذاً من التحليل النحوي وسيلة لتثبيت حُكْمه وتقوية حجته، ومنهم من كان ردّه انطلاقاً من تحليله لدلالة النص أو العبارة وربط ذلك بسياقات الكلام، بناءً على ما توصل إليه من حجج متحدثا عن وظيفة هذه الواو ودلالاتها في المواضع المذكورة، حتى إنّ بعضهم لم يتحدث في تحليله وتعليله عن فكرة " الثمانية ".

وبهذا نكون أمام ثلاثة مذاهب وآراء في هذه القضية، بين من أثبت هذه الواو للثمانية إثباتاً صريحاً كابن خالوية والحريري وكثير من النحويين والأدباء، ومن ردّها ردّاً مطلقاً كابن القيم وابن هشام، ومن ردّها تحليلاً وتعليلاً لأنه لم يجد عليها دليلاً، كالزمخشري وأبي حيان وكثير من النحويين والمفسرين. ويُضاف إلى هذه الآراء الثلاثة رأيان آخران هما: رأي المتوسطين الذين ذكروا ما قيل فيها ولم يبدوا إثباتاً ولا نفياً كالفخر الرازي مثلاً، وأمّا الرأي الآخر فهو رأي بعض المحدثين الذين تحدثوا عن أسرارها اللغوية ولطائفها البلاغية من غير أن يأبهوا لكونها للثمانية أو لغيرها، ومنهم من المفسرين الطاهر بن عاشور، ومن اللغويين الدكتور تمام حسان وغيره.. وسيأتي بيان ذلك كله بالتفصيل مع إيراد مذهب كل فريق وحججه في هذه القضية.

تخريج الإثبات لواو الثمانية :

من أول المثبتين لواو الثمانية، ابن خالويه ([2]) مستنداً إلى أن ذلك من عادة العرب في كلامهم، إذ يقفون عند

(1) – منهم الزمخشري في الكشاف : 2/478-479 ؛ وابن هشام في مغني اللبيب : 2/417 وما بعدها .

(2) – هو الحسين بن أحمد بن خالويْه (ت 370 هـ/ 980 م) كنيته أبو عبد الله : لغويّ، من كبار النحاة، أصله من همذان، زار اليمن وأقام بذمار مدة، وانتقل إلى الشام فاستوطن حلب، وعظمت بها شهرته، فأحله بنو حمدان منزلة رفيعة. وكانت له مع المتنبي مجالس ومباحث عند سيف الدولة. وعهد إليه سيف الدولة بتأديب أولاده ؛ توفي في حلب ؛ من أشهر كتبه كتاب : شرح مقصورة ابن دريد، وكتاب: إعراب ثلاثين سورة من القرآن العزيز ، وكتاب: الحجة في القراءات السبع . [ينظر الأعلام للزركلي.]

السابع، ولا يتّتون الكلام بعده إلاّ عطفاً.. فقد أورد صاحب البرهان أن ابن خالويه اجتمع مع أبي عليّ الفارسي في مجلس سيف الدّولة ، فسئل ابن خالويه عن قوله تعالى: { حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا } [الزمر/73] في التّار بغير واو، وفي الجنّة بالواو ؟ فقال: " هذه الواو تسمّى واو الثمانية، لأنّ العرب لا تعطف الثّمانية إلاّ بالواو؛ فردّ عليه ذلك أبو علي الفارسي وعدّها واواً للحال.([1]) وبهذا الرأي أخذ الزمخشري من بعد. وهذا الحوار بين أبي علي الفارسي وابن خالويه إنما هو واحد من عدة حوارات بينهما، وهو يشبه إلى حد كبير ذلك الخلاف الذي وقع بينهما حول قضية الترادف في مجلس سيف الدولة، فقد روى السيوطي في كتابه "المزهر في علوم اللغة وأنواعها" عن ابن الأعرابي أنه قال:" كنّا بمجلس سيف الدولة بحلب، وفي الحضرة جماعة من العلماء، منهم ابن خالويه. فقال ابن خالويه: إنّي أحفظ للسيف خمسين اسماً، فتبسّم أبو علي وقال: أمّا أنا فلا أحفظ له إلاّ اسماً واحداً هو السيف. فقال ابن خالويه: وأين المهنّد والصمصام وكذا وكذا...؟ فقال أبو علي: هذه صفات.."([2]) ولا أحد ينكر وجود الترادف في العربية، كما أنه لا أحد يثبت أن ثمة لفظين بالمعنى نفسه. وإنما هو تقارب في المعنى والدلالة بين الاسماء وبين الأسماء، وبين الصفات، وبين الأسماء والصفات، وذلك بدرجات متفاوية بين الألفاظ بحسب حقولها وأصول دلالاتها.. فهذا الجدال بين العلماء قائم منذ القديم، وهو دليل على أنّ القضايا التي تثار بينهم لها من السعة ما لا يمكن حصره، لأنها متصلة بسعة العربية وتشعبها. ولا يخفى ما في مثل هذه المجالس بين العلماء من الفوائد القيّمة..

ومن المثبتين لهذه الواو، الحريري ([3]) في كتابه: (درة الغوّاص) إذْ يقول: "ومن خصائص لغة العرب إلحاق الواو في الثامن من العدد كما جاء في القرآن {التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ } [التوبة/ 112] وكما قال سبحانه: {سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ } [الكهف/22] ومن ذلك أنّه ،جلّ اسمه، لمّا ذكر أبوابَ جهنّم ذكرها بغير واو، لأنّها سبعة، فقال: {حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا } [الزمر/73] ولما ذكر أبواب الجنّة ألحق بها الواو لكونها ثمانية فقال سبحانه: {حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا } [الزمر/73] وتسمّى هذه الواو واو الثمانية." ([4])

ومن المثبتين كذلك لواو الثمانية أبو منصور الثعالبي ([5]) إذْ يقول في معاني الواو : " ... ومنها واو الثمانية، كقولك:

---

(1) – الزركشي (بدر الدين): البرهان في علوم القرآن ، 189/3

(2)– السيوطي(جلال الدين): المزهر فى علوم اللغة وأنواعها، 1/ 235

(3)– هو مُحَمَّد أبو القاسم بن علي البصري الحريري (ولد في 446 هـ ؛ وتوفي في516 هـ) الأديب المتميز ، مؤلف المقامات المشهورة المعروفة باسمه. ولد في بلدة المشان القريبة من البصرة، ونشأ على تعلّم العربية حتى نبغ فيها؛ وقد كان ظهوره مهمّاً في زمانه لخدمة اللغة العربية بما أوتي من الذكاء الفطري وكثرة العلم والاطلاع؛ اشتهر بكتابة المقامات، وله أيضاً عدة مؤلفات، منها كتاب" درة الغواص في أوهام الخواص"؛ و"ملحة الإعراب في 377 بيتا" وغيرها من الشعر والنثر.

(4) – الحريري (مُحَمَّد أبو القاسم): درة الغواص في أوهام الخواص، تح: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة النهضة (1975م)، ص31

(5) – عبد الملك بن مُحَمَّد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (و 350 هـ – ت 450 هـ الموافق: 961 م – 1038 م) أديب ولغوي وناقد وصاحب الكتاب الشهير يتيمة الدهر. وُلِد في نيسابور، كان فرّاءً يخيط جلود الثعالب فنُسب إلى صناعته، ثم انتقل من حياكة الفراء إلى دراسة اللغة والأدب والتاريخ فنبغ واشتهر. قال الباخرزي عنه: (هو جاحظ نيسابور) وأجمع من ترجموا له

واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية؛ وفي القرآن { سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} [الكهف/22] وكما قال تعالى في ذكر جهنّم {حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} بلا واو، لأنّ أبوابها سبعة. ولمّا ذكر الجنّة قال: { حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا} [الزمر/73] فألحق بها الواو لأن أبوابها ثمانية، وواو الثمانية مستعملة في كلام العرب."

وهناك عدد من علماء اللغة والنحو والمعاجم سلكوا هذا النهج في عدّهم هذه الواو واو للثمانية، لمجيئها بعد سبعة أشياء مذكورة أو مشار إليها. ومن هؤلاء على سبيل المثال: مجد الدين الفيروزآبادي صاحب القاموس المحيط (ت 718 هـ الموافق 1415 م) والزبيدي صاحب تاج العروس (ت 1205 هـ) وعدد من أئمة اللغة والأدب البارزين.

استنتاج :

إنّ الذين اثبتوا واو الثمانية هم من الأدباء واللغويين والنحاة، وإن كان أكثر المثبتين لها يغلب على منهجهم الطابع الأدبي الفني الذي يميل بهم إلى تحكيم الذوق رغبة في استنباط بعض أسرارها، خصوصاً بعد أن تكرر ورودها في عدة مواضع وسياقات من القرآن الكريم؛ كما أنهم أسّسوا مذهبهم على بعض ما أُثر من عادات وأعراف لغوية جاءت في الاستعمال العربي، على ما جاء في رواية بعضهم، فهي ،عندئذ، ذات اتصال بحياة العرب وخصائصهم الثقافية والدينية، كالذي يتداولونه من كون أبواب الجنة ثمانية ([1]). فكل هذا ممّا يقوّي الحكْم عندهم بأن هذه الواو هي واو الثمانية، هذا فضلاً عن عدم دلالتها الصريحة على معنى معيّن لديهم غير الذي قرروه، كما أن وظيفتها النحوية غير ثابتة على وجه واحد، بل هي متغيرة ومتعددة الأوجه والتخريجات عند من أنكروها للثمانية.

تخريج النفي والردّ لواو الثمانية :

ردّه كثير من النحاة والمحققين هذا الرأي (أي: كون الواو للثمانية) ورأوا أن الواو في الآيات المذكورة ذات وظايف أخرى كالعطف أو الحال أو المعية أو الاستئناف.. إلى غير ذلك من التخريجات النحوية التي قدّموها.

فالزمخشري لم يشر إليها في تفسيره لآية التوبة، وأما في آية الكهف (وثامنهم كلبهم) فيعدها واو الصفة إذ يقول: " فإن قلت ما هذه الواو الداخلة على الجملة على الجملة الثالثة ، ولم دخلت عليها دون الأولين ؟ قلت: هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة ، في نحو قولك: (جاءني رجل ومعه آخر) و(مررت بزيد وفي يده سيف)." ([2])

على أنه كان نابغة عصره في الأدب نظمًا ونثرًا، وكان قبلة أنظار المؤلفين بعده. ومن أشهر مؤلفاته : كتاب : " فقه اللغة واسرار العربية ." الذي يُعَدّ من أهم المصادر اللغوية والأدبية.

(1)- عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عن عُمَر رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ أَوْ فَيُسْبِغُ الْوَضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ (رواه مسلم، برقم: 234 وأبو داود 169 والنسائي 148 والترمذي 55 وابن ماجة 470 وأحمد 122 ؛ وزاد الترمذي " اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنْ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ الْمُتَطَهِّرِينَ." وصححه الألباني في "صحيح الترمذي" وغيره.)

(2)- الزمخشري، الكشاف: 128/4

فهي عنده واو تقترن بها الجملة التي تكون صفة أو حالا. وأما في آية الزمر فيجعلها للمعية والحال معا، مساعيناً بسياقها في اقترانها بالجنة أو بالنار، بقوله : " حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها : مع فتح أبوابها ، وقيل أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها ، وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها، فلذلك جيء بالواو كأنه قيل : إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها ." ([1])

وفي آية التحريم يستند إلى التخريج النحوي، فيجعلها للعطف ويعلل ذلك بأن قوله (ثيبات وأبكارا) صفتان متنافيتان فلم يكن بد من الواو . وأما عدم وجود العطف في الصفات التي قبل هاتين الصفتين فذلك سببه أن هذه الصفات متشابهة ومجتمعه فلا يعطف بعضها على بعض. ([2])

وكذلك ينفي أبو القاسم السهيلي الأندلسي (ت 581هـ) كون هذه الواو للثمانية، ويجعل وظيفتها النحوية هي التوكيد مقرراً أنّ " الذي يليق بهذا الموضع أن تعلم أنّ الواو تدل على تصديق القائلين، لأنها عاطفة على كلام مضمر تقديره: (نعم، وثامنهم كلبهم) وذلك أنّ قائلاً لو قال: أزيدٌ شاعر ؟ فقلت له: وفقيه، كنت قد صدّقته كأنك قلت: نعم، هو كذلك، وفقيه أيضاً." ([3]) وذكر السهيلي آية أخرى شاهداً على ذلك، من غير الآيات المتداولة التي دار حولها الخلاف، وجعله من هذا الباب، وهو قوله تعالى: { وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير } [البقرة: 126].

ويذهب أبو حيان الأندلسي (ت754هـ) مذهب الزمخشري في عدم التصريح بنفي كونها للثمانية، غير أنه لم يتحدث عنها في تخريجه النحوي للآية الكريمة. وهذا نوع من النفي بطريق عدم الإثبات، ففي قوله تعالى:{ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ } [الكهف/22] تحدث أبو حيان عن وظيفة العطف لهذه الواو، من باب عطف جملة على أخرى إذْ يقول: ".. والواو في (وثامنهم) للعطف على الجملة السابقة : أي يقولون هم سبعة وثامنهم كلبهم، ثم أخبروا إخباراً ثانياً أنّ ثامنهم كلبهم فهما جملتان." [(4)]

وأمّا اشدّ المنكرين فهو ابن هشام الأنصاري[(5)] الذي يردّ فكرة واو الثمانية أينما وجدت الواو، إذْ يقول: " واو الثمانية ذكرها جماعة من الأدباء ومن النحويين الضعفاء كابن خالويه." [(6)] ففي قوله تعالى في آية التوبة: { التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف **والناهون عن المنكر** } [التوبة/ 112] يردّ ابن هشام كون

(1) – الزمخشري، الكشاف: 411/3

(2) – المصدر نفسه: 128/4

(3) – السهيلي: شرح سيرة ابن هشام: 17/3

(4) – تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي 112/2، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت.

(5) – ابن هشام الأنصاري هو أبو مُحَمَّد عبدالله جمال الدين،(و 708 هـ – ت 761 هـ الموافق: و 1309 م – ت 1360 م) من أئمة النحو العربي البارزين، ذو علم يشهد بعلو قدره في صناعة النحو، وصفه ابن خلدون بأنه " كان ينحو في طريقته منحى أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه، فأتى من ذلك بأمر عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه." وقال في بيان سعة علمه واطلاعه: " ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه."

(6) – ابن هشام، مغني اللبيب: 2/ 419

الواو للثمانية ويرى أنها للعطف ؛ وفي آية التحريم، في قوله تعالى:{ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات **وأبكارا** } [التحريم /5] ليست الواو عنده للثمانية، بل هي واو العطف أيضاً، وهي واجبة الذكر. ويرى أن قوله (ثيبات وأبكارا) صفة تاسعة وليست ثامنة إذ إنّ أُولى الصفات عنده هي قوله تعالى: (خيرا منكن) لا قوله: (مسلمات)، وأن قوله تعالى: (ثيبات وأبكارا) تفصيل للصفات السابقة قبلها، فلا تعد إذًا صفة مثلهن، بل هي مستقلة عنهن. ([1])

ويعلق ابن هشام على هذه الواو في سورة الكهف، في قوله تعالى: { سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} [الكهف/22] مؤيدا كونها للعطف كذلك (أي : العطف على جملة) ويجعل التقدير: (هم سبعة وثامنهم كلبهم.) ويردّ كونها واواً للحال، وأنّ المبتدأ اسم إشارة مقدر، أي : هؤلاء سبعة وثامنهم كلبهم. إذ إنّ عامل الحال ممتنع إذا كان معنويا. ([2]) وهذا الرأي قريب من رأي أبي حيان الأندلسي ومخالف لرأي الزمخشري .

وفي آية الزمر يردّ ابن هشام كون الواو واو الثمانية لأنه ليس فيها ذكر عدد البتة ، وإنما فيها ذكر الأبواب، وهي جمع لا يدل على عدد خاص، ولأن الواو داخلة على جملة لا على عدد. وأشار إلى اعتبارها واوا مقحمة (أي: زائدة) عند البعض وعاطفة عند آخرين، وحالية عند المبرد والفارسي وغيرهما.

لقد أمعن ابن هشام في إنكار كون هذه الواو للثمانية، كما أمعن في الردّ على من قالوا بذلك من أئمة اللغة والنحو والأدب والتفسير، إذْ ردّ رأي أبي البقاء العكبري (النحوي) والثعلبي (المفسّر) في آية التوبة { والناهون عن المنكر } [التوبة/ 112] قائلاً : " وذهب أبو البقاء على إمامته في هذه الآية مذهب الضعفاء، فقال إنما دخلت الواو في الصفة الثامنة إيذاناً بأنّ السبعة عندهم عدد تام... أمّا قول الثعلبي إنّ منها الواو في قوله تعالى { سبع ليال وثمانية ايام حسوماً} [الحاقة/7] فهو سهْوٌ بيّنٌ، وإنما هذه واو العطف، وهي واجبة الذّكْر." ([3])

فالحاصل أنّ أبا حيان والزمخشري لم يتحدثا عن واو الثمانية، بل قدّما تخريجات أخرى للواو وفق وظائفها النحوية المحتملة والمتداولة بين النحاة. وهذه التخريجات توحي بأنهما لا يأبهان لكونها للثمانية؛ وأمّا ابن هشام فيصرّح بردّه تسمية هذه الواو بواو الثمانية وينفي ذلك نفْياً قاطعاً صريحاً واضحاً، مع قبول ما عدا ذلك من تخريجات النحاة وإن خالف بعضها رأيه. بل إنه يصف العلماء بالضعف في الرأي أو السهو فيما أبدوه من تحليلاتهم للنصوص التي تضمنت هذه الواو. وهذا ما انفرد به ابن هشام بين من نفوا وجود واو الثمانية، إذْ لا نجد هذا التشديد في الرد والتضعيف للرأي إلاّ عنده. وقد ردّ بعضهم رأي البعض لعدم وجود الدليل..

(1) – ابن هشام، مغني اللبيب: 2/ 420

(2)– ينظر: المصدر نفسه: 2/ 420 وما يليها .

(3) – المصدر نفسه: 421/2.

ولعلّ من الجدير بنا أن نُنعم النظر والتأمّل في رأي قيّم وجدناه لابن القيم[1] يلتمس فيه أدلة أخرى تتجاوز التخريج النحوي إلى توجيه السياق وفسحة المعنى، مع مراعاة المقاصد القرآنية، على اعتبار أنّ هذه الواو وُجِدتْ ضمن الشواهد القرآنية في كل مواضعها. وهو أيضا يردّ تسميتها بواو الثمانية لأن ذلك في نظره " ليس عليه دليل مستقيم ." ([2])

وهو يقوم في البداية باستعراض ما قيل في الواو التي في آية التوبة من أنها واو الثمانية ثم يقول: " وكل هذه الأجوبة غير سديدة وأحسن ما يقال فيها ان الصفات إذا ذكرت في مقام التعداد، فتارة يتوسط بينها حرف العطف لتغايرها في نفسها وللإيذان بأن المراد ذكر كل صفة بمفردها؛ وتارة لا يتوسطها العاطف لاتحاد موصوفها وتلازمها في نفسها وللإيذان بأنها في تلازمها كالصفة الواحدة ؛ وتارة يتوسط العاطف بين بعضها ويحذف مع بعض بحسب هذين المقامين." ([3]) فالواو عنده إذا هي واو العطف، ورأيه هذا يشبه رأي الزمخشري في تعليقه على آية التحريم .

فهذه الواو ،على رأي ابن القيم، هي في كل الآيات المذكورة للعطف: ففي آية التوبة أسقطت هذه الواو وحَسُن إسقاطها لأن المقام مقام تعداد الصفات من غير نظر إلى جمع أو انفراد، وهو المقام نفسه في آية التحريم؛ إذ لم تذكر الواو إلا آخرا. ويذكر ابن القيم مقاما آخر يراد فيه جمع الصفات أو التنبيه على تغايرها، وفي هذا المقام يَحْسُن إدخال الواو كما في قوله تعالى {هو الأول والآخر والظاهر والباطن} [الحديد/3] وأحيانا يجتمع المقامان: أي مقام ذكر الواو ومقام إسقاطها، كما في قوله تعالى {غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطَّوْل }[غافر/1-3]

فقد أتى بالواو في الصفتين الأوليين وحذفها في الصفتين الأخيرتين، دلالةً على أن الصفتين الأوليين متغايرتان وتحملان مفهومين مختلفين، هما غفران السيئة وقبول الحسبة، فَحَسُن العطف ههنا، وكلما كان التغاير أبين كان العطف أحسن، وكذلك يكون ترك العطف لحكمةٍ ومعنى مقصودٍ يدل عليه حذف حرف العطف، كما في الصفتين الأخيرتين من آيات غافر، فقد ترك العطف بينهما لنكتة بديعة، وهي الدلالة على اجتماع هذين الأمرين (أي: الصفتين) في ذاته سبحانه، وأنه شديد العقاب وذو الطَّوْل، وطَوْله لا ينافي شدة عقابه، بل هما مجتمعان له ولا تغاير بينهما، فَحَسُن إسقاط العطف لهذا المعنى الأول لأن المراد اجتماعها في النساء، وتعين العطف في الأخير (أي : عطف البكارة على الثيوبة) لأنه لا يمكن اجتماعهما، ولأن المقصود أنه يزوجه بالنوعين: الثيبات والأبكار ([4])

كما أن يرى ابن القيم في آية الكهف أنّ الواو ليست لأجل الثمانية ويذكر احتمالا آخر متمثلا في رأي السهيلي، وهو أن يكون دخول الواو إيذانا بتمام كلامهم عند قولهم : سبعة ؛ ثم ابتدأ قوله : وثامنهم كلبهم، وذلك يتضمن تقرير قولهم:

---

(1) – هو شمس الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر(و691 هـ – ت751 هـ الموافق و1292م – ت 1349م) دمشقي حنبلي معروف بابن قيّم الجوزية من علماء المسلمين في القرن الثامن الهجري، متبحر في عدة علوم، صاحب المؤلفات الكثيرة القيّمة، كان أبوه قيّماً على مدرسة الجوزية بدمشق مدة من الزمن، وقد خلفه فيها، واشتهر بذلك اللقب ذريته وحفدتهم ، وقد شاركه بعض أهل العلم في هذه التسمية. له ما يقارب المائة مؤلف أو يزيد، من أشهرها (زاد المعاد ، أعلام الموقعين ، مدارج السالكين، طريق الهجرتين ، بدائع الفوائد، الجواب الكافي، حادي الأرواح ...)

(2) – بدائع الفوائد: 3/43-44 .

(3) – المصدر نفسه: 3/44 .

(4) – ينظر: بدائع الفوائد: 3/44 ؛ والتفسير القيم: ص425

سبعة . وعلى هذا تكون الواو للاستئناف لا للعطف. ولكنه لا يرجح ما ذهب إليه السهيلي لأن الاستئناف يقتضي أن لا يكون ما بعد الواو داخلا في المحكي بالقول قبلها ، وما في هذه الآية خلاف ذلك . وقد رد الاحتمال الأول كما رد الاحتمال الثاني. ([1])

وأما في آية الزمر فليست الواو للثمانية عند ابن القيم إذ لا دلالة في اللفظ على الثمانية " بل هذا من باب حذف الجواب لنكتة بديعة وهي أن تفتيح أبواب النار كان حال موافاة أهلها ففتحت في وجوههم ، وأما الجنة فلما كانت ذات الكرامة وهي مأدبة الله وكان الكريم إذا دعا أضيافه إلى داره شرع لهم أبوابها ثم استدعاهم إليها مفتحة الأبواب، أتى بالواو العاطفة ههنا الدالة على أنهم جاؤوها بعدما فتحت أبوابها. وحذف الجواب تفخيما لشأنه وتعظيما لقدره كعادتهم في حذف الأجوبة ." ([2]) وهنا نجد إشارة لطيفة إلى بعض أسرار هذه الواو في القرآن الكريم، قلّما يتحدث عنها النحاة.

فابن القيم يرى أن الواو في الآيات السابقة ليست للثمانية، وإنما هي واو العطف يحسُن ذكرها إذا كان هناك تغاير واختلاف بين الصفات، ويحسن إسقاطها إذا اجتمعت الصفات في دلالاتها ولم يكن بينها اختلاف.. وأما القول بوجود واو تسمى واو الثمانية فلا يأخذ به، وهو عنده " قول ضعيف لا دليل عليه ، ولا تعرفه العرب، ولا أئمة العربية، وإنما هو من استنباط بعض المتأخرين." ([3]) وهذا هو الرأي ذاته الذي يأخذ به ابن هشام .

وكما يُردّ ابن القيم كون الواو للثمانية يردّ كونها زائدة عند بعضهم، ويضعف هذا الرأي أيضا لأن " زيادة الواو غير معروف في كلامهم ولا يليق بأسْفه الكلام أن يكون فيه حرف زائد لغير معنى ولا فائدة ." ([4]) فكيف يكون ذلك في كلام الله المعجز بلفظه ومعناه. ومثل هذا الردّ لفكرة الزيادة، ولاسيما زيادة الحروف في القرآن الكريم ، أمر متكرر لدى ابن القيم في عدة مواضع.

استنتاج :

بعد عرضنا لأهمّ ما قيل في هذه الواو ممّا أورده علماء اللغة والنحو والعلوم الشرعية نود أن نشير إلى بعض الجوانب التي لم نلحظها لدى هؤلاء العلماء، وسنورد هذه الإشارات مع كلّ آية من الآيات السابقة توخّياً لبيان بعض أسرار هذه الآيات، ممّا يتكشّف من استعمالاتها في سياقاتها المتنوعة.

ففي الآية الأولى، وهي قوله تعالى: { التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر } [التوبة/ 112] نجد الصفات الستّ الأولى كلها مفردة وغير معطوفة، فكأنها جملة واحدة متصلة الأجزاء؛ وقد تمّ الانتقال منها إلى صفتيْن مركبتيْن هما (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) فجاءت الثانية منهما معطوفة على الأولى. وعلى هذا فالعطف قد اقتصر على الصفتيْن المركبتين دون الصفات المفردة. وهذا ما يؤيّد القول بأنّ العطف هو الغرض من الواو هنا..

(1) – بدائع الفوائد: 3/44-45

(2) – المصدر نفسه: 3/45

(3) – التفسير القيم : 424-425

(4) – المصدر نفسه: 425

ومن جهة أخرى نلاحظ أنّ الصفات المفردة التي جاءت في بداية هذه الآية هي أقرب إلى الترادف واتصال بعضها ببعض من حيث المعنى، فجاء هذا التقارب والاتصال المعنوي مدعّماً باتصال لفظي لم يُحتَجْ فيه إلى الواو لقوّته.. أمّا الصفتان المركبتان الأخيرتان فبينهما تقابل وتضادّ، ولا يمكن وصل الشيء بضدّه وصلاً مباشراً، فكان لا بدّ من الفصل بينهما، فجاءت واو العطف لبيان ما يقوم به المؤمنون من الامتثال لما طلبه منهم ربهم، وما يتصفون به من طاعته من جهة الأمر بما طلب منهم أن يأمروا به، والنهي عمّا طلب منهم أن ينهوا عنه. وهاتان الصفتان الأخيرتان متصلتان إحداهما بالأخرى عن طريق الضدّية لا عن طريق الترادف، فكان لا بدّ من الفصل بينهما، وما دامتا ممّا طُلب من المؤمنين أداؤه بالتلازم (أي تلازم الأمر بالمعروف مع النهي عن المنكر) وجب الجمع بينهما، وليس ثمّة إلاّ الواو لمثل هذا الغرض من الجمع بين المتضادّين، وفي هذا توكيد للمعنى والقصد ..

كما أنّ الصفات الستّ الأولى المفردة هي ممّا يتعلّق بشؤون العبْد مع خالقه، أمّا الصفتان الأخيرتان (المركبتان) فهما ممّا يتصل بشؤون العبْد مع أخيه، بل هما ممّا أمر الله بهما في علاقة الإنسان المؤمن بأخيه، ولهذا جاء تأكيدهما باستعمال الواو، إذ الواو ههنا ،وإن كانت للعطف، فهي توحي ببعض التأكيد على ما اتصل بها من الكلام (من جهة تضمّنه ما جاء قبلها وبعدها) وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وهذا الإيحاء بالتوكيد تأتّى للواو العاطفة هنا من وجود العطف في صفتيْن من مجموع صفات متعددة ذكرتْ من غير عطف بينها.. وهذا النوع من التعبير الذي يتضمّن معنى التوكيد نجده في لغات أخرى غير العربية إذْ لا نجد أداة العطف ،عند تعدد الكلمات المتشابهة والمترادفة وتتابعها، إلاّ في ختامها بذكْر آخرها، إيذاناً بهذا التوكيد.

غير أنّنا لا نريد أن نسقط هذا الكلام على ما ورد في الآية الكريمة، وإنما أردنا أن نبيّن أنّ هذا النمط من التعبير موجود في الأسلوب القرآني، وقد استعملته العرب كذلك في كلامها. فمن أمثلته في القرآن الكريم قول الله عز وجل: {وثامنهم كلبهم} [الكهف/2] وقوله تعالى: { وفتحت أبوابها } [الزمر /73] وقوله ﷻ: { ثيبات وأبكارا } [التحريم /5] ولا غرو أن يكون شيء من قبيله في كلام العرب، لأن القرآن إنّما نزل بلغات العرب.

التوسط بين الإثبات والنفي :

قبل البدء في الحديث عن المتوسطين في الرأي يجب أن نعلم أنه لا ينبغي الجزم بإثبات هذه الواو بمجرد ذكرها، أو نفيها بمجرد ذكْر وظيفة أخرى لها.. وإنما علينا أن نميّز بين من يصرّح بالإثبات أو بالنفي تصريحاً ويؤكّده تأكيداً، وبين من يذكر الآراء ويرجح بعضها على بعض، فهذا وإن لم يأخذ برأي ما فهو لا ينفيه نفياً قاطعاً.. ومن هذا المنطلق جاء تقديرنا للفريق الثالث من المتوسطين الذين لا يؤكدون نفياً ولا إثباتاً..

ومن المتوسطين من المفسرين الذين لا يثبتونها ولا ينكرونها صراحة، نجد الفخر الرازي (و544هـ؛ ت606 هـ) الذي يقرر أن " السبعة عند العرب أصل في المبالغة في العدد، قال تعالى: {إن تستغفر لهم سبعين مرة. }[التوبة/80] وإذا كان كذلك فإذا وصلوا إلى الثمانية ذكروا لفظا يدل على الاستئناف، فقالوا : وثمانية، فجاء هذا الكلام على هذا القانون، قالوا : ويدل عليه نظيره في ثلاث آيات، وهي قوله: { والناهون عن المنكر} [التوبة / 112] لأن هذا هو العدد الثامن من الأعداد المتقدمة ، وقوله:{ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها. } [الزمر / 73] لأن أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة ، وقوله{ ثيبات وأبكارا} [التحريم : 5] هو العدد الثامن مما تقدم، والناس يسمون هذه الواو واو الثمانية،

ومعناه ما ذكرناه ، قال القفال: وهذا ليس بشيء ، والدليل عليه قوله تعالى:{ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر} [الحشر / 23] ولم يذكر الواو في النعت الثامن، ثم قال تعالى:{ قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل ...} ([1])

فالرازي لا يثبتها بقوة إثبات الحريري وابن خالويه، ولا ينفيها بقوة نفي الفارسي وابن القيم وابن هشام، وإنما ينقل آراء سابقيه من المثبتين والمنكرين، فيذكر من قال بأنها للثمانية، ويذكر رأي بعضهم في إفادتها معنى الاستئناف، ورأيه وسط بين الفريقين، لا يثبتها إثبات من أكّدوا ولا ينفيها نفي من شدّدوا، وإنما يعرض للقضية باعتدال ويبحث لها عن وجوه القبول في هذا الرأي أو ذلك المقال..

ومن المفسرين المتوسطين نجد الطاهر بن عاشور الذي يستعرض ما قيل في هذه المسألة وما ورد فيها من خلاف بين أهل اللغة والنحو والتفسير، ثم يفصح عن رأيه وموقفه من ذلك قائلاً : " قَالَ جَمْعٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ الْوَاوَ فِي قَوْلِهِ: {وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ } وَاوٌ يَكْثُرُ وُقُوعُهَا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عِنْدَ ذِكْرِ مَعْدُودٍ ثَامِنٍ، وَسَمَّوْهَا وَاوَ الثَّمَانِيَةِ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: ذَكَرَهَا ابْنُ خَالَوَيْهِ فِي مُنَاظَرَتِهِ لِأَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {حَتَّى إذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها} [الزمر/73] . وَأَنْكَرَهَا أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ. وَقَالَ ابْنُ هِشَامٍ فِي «مُغْنِي اللَّبِيبِ» " وَذَكَرَهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْأُدَبَاءِ كَالْحَرِيرِيِّ، وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ كَالثَّعْلَبِيِّ، وَزَعَمُوا أَنَّ الْعَرَبَ إِذَا عَدُّوا قَالُوا: سِتَّةٌ سَبْعَةٌ وَثَمَانِيَةٌ، إِيذَانًا بِأَنَّ السَّبْعَةَ عَدَدٌ تَامٌّ وَأَنَّ مَا بَعْدَهَا عَدَدٌ مُسْتَأْنَفٌ، وَاسْتَدَلُّوا بِآيَاتٍ إِحْدَاهَا: سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ- إِلَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: {سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} [الْكَهْف/22] . ثُمَّ قَالَ: الثَّانِيَةُ آيَةُ الزُّمَرِ [71] إِذْ قِيلَ: فُتِحَتْ فِي آيَةِ النَّارِ لِأَنَّ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ سَبْعَة، وَفُتِحَتْ [الزمر: 73] فِي آيَةِ الْجَنَّةِ إِذْ أَبْوَابُهَا ثَمَانِيَةٌ. ثُمَّ قَالَ: الثَّالِثَةُ: {وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ} فَإِنَّهُ الْوَصْفُ الثَّامِنُ. ثُمَّ قَالَ: وَالرَّابِعَةُ: وَأَبْكاراً فِي آيَةِ التَّحْرِيمِ [5] ذَكَرَهَا الْقَاضِي الْفَاضِلُ وَتَبَجَّحَ بِاسْتِخْرَاجِهَا وَقَدْ سَبَقَهُ إِلَى ذِكْرِهَا الثَّعْلَبِيُّ ... وَأَمَّا قَوْلُ الثَّعْلَبِيِّ: أَنَّ مِنْهَا الْوَاوَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً} [الحاقة/ 7] فَسَهْوٌ بَيِّنٌ وَإِنَّمَا هَذِهِ وَاوُ الْعَطْفِ. اهـ. وَأَطَالَ فِي خِلَالِ كَلَامِهِ بِرُدُودٍ وَنُقُوضٍ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ «وَحَدَّثَنِي أَبِي عَنِ الْأُسْتَاذِ النَّحْوِيِّ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْكَفِيفِ الْمَالِقِيِّ. وَأَنَّهُ قَالَ: هِيَ لُغَةٌ فَصِيحَةٌ لِبَعْضِ الْعَرَبِ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يَقُولُوا إِذَا عَدُّوا: وَاحِدٌ، اثْنَانِ، ثَلَاثَةٌ، أَرْبَعَةٌ، خَمْسَةٌ، سِتَّةٌ، سَبْعَةٌ، وَثَمَانِيَةٌ، تِسْعَةٌ، عَشَرَةٌ، فَهَكَذَا هِيَ لُغَتُهُمْ. وَمَتَى جَاءَ فِي كَلَامِهِمْ أَمْرُ ثَمَانِيَةٍ أَدْخَلُوا الْوَاوَ." وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: هِيَ لُغَةُ قُرَيْشٍ.." ([2])

وبعد أن يستعرض صاحب التحرير والتنوير أشهر ما قيل في هذه المسألة عند القدماء، يدلي برأيه متوسطاً معتدلاً لا مثبتاً ولا نافياً، إذْ يقول: " وَأَقُولُ: كَثُرَ الْخَوْضُ فِي هَذَا الْمَعْنَى لِلْوَاوِ إِثْبَاتًا وَنَفْيًا، وَتَوْجِيهًا وَنَقْضًا. وَالْوَجْهُ عِنْدِي أَنَّهُ اسْتِعْمَالٌ ثَابِتٌ، فَأَمَّا فِي الْمَعْدُودِ الثَّامِنِ فَقَدِ اطَّرَدَ فِي الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُسْتَدَلِّ بِهَا. وَلَا يَرِيبُكَ أَنَّ بَعْضَ الْمُقْتَرِنِ بِالْوَاوِ فِيهَا لَيْسَ بِثَامِنٍ فِي الْعَدَّةِ لِأَنَّ الْعِبْرَةَ بِكَوْنِهِ ثَامِنًا فِي الذِّكْرِ لَا فِي الرُّتْبَةِ..." ([3])

فرأي الطاهر بن عاشور لا يؤيّد نفياً ولا يؤكّد إثباتاً، وإنْ كان يبدو إلى الإثبات أميل، لكنها نظرة منصفة منه ورأي

(1) – الرازي: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): 107/21 .

(2) – الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير: 42/11-43

(3) – المصدر نفسه: 43/11

وافقه فيه كثير من المفسرين وغيرهم، من الإشارة إلى تلك البشارة بسبق الواو عند ذكْر فتح أبواب الجنة للمتقين، كما أنه ذكر رأي من قالوا إنها من لغة العرب؛ وذلك بعد أن ذكر موقف النافين لواو الثمانية..

ونجد مثل هذا التوسط والاعتدال في الرأي عند بعض المحدثين كذلك، إذْ يرى بعضهم أنه " يمكن القول بأنها واو عطف، وفي الوقت نفسه تدل على الثمانية أيضا، فلا مانع من أن تحمل الواو دلالة ما مع كونها عاطفة، وليس إمكان سقوطها أو عدم سقوطها مقياساً لدلالتها على الثمانية أو العطف، لأن واو الثمانية نفسها قد تكون صالحة للسقوط في موضع وغير صالحة في موضع آخر، ولذلك سقطت من الصفات التي يمكن اجتماعها ولم تسقط من الصفتين اللتين لا تجتمعان، فهي قد أُعطيتْ صفتين متنافيتين، كما دلّتْ في الوقت نفسه على أن العدد ثمانية، ولعلّ هذا من اسرار الإعجاز القرآني." ([1])

ومن المتوسطين أيضاً بعض المحدثين من المفسرين والنحاة، ممن أهتموا بالجانب البلاغي والأسلوبي للآيات القرآنية التي تضمنت هذه الواو، ونظروا إليها نظرة ذوقية انطلاقاً من سياقات الاستعمال وما لها من أبعاد دلالية، من دون الإمعان في التخريجات النحوية التي رأيناها عند النحاة. ومنهم صاحب التحرير والتنوير الذي أشار إلى ما مفاده أنّه ينبغي التفريق بين الثمانية في الذِّكْر والثمانية في الترتيب، فقوله تعالى: (وفتحت أبوابها) يدلّ على ذكر الأبواب الثمانية للْجنّة، ويحيل على الحديث الشريف الصحيح. ولا يدل على العَدّ إلى الثمانية ؛ وأمّا قوله تعالى: (التائبون العبدون... والناهون عن المنكر) فيدلّ على العدّ والترتيب..

فالعبرة إذاً ليست بالعدد بقدر ما هي بذكْر هذا العدد. فوجوده في الكلام عندئذ لا يكون لغير فائدة. وفي هذا يقول صاحب التحرير والتنوير : " **وَالْوَجْهُ عِنْدِي أَنَّهُ اسْتِعْمَالٌ ثَابِتٌ**، فَأَمَّا فِي الْمَعْدُودِ الثَّامِنِ فَقَدِ اطَّرَدَ فِي الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُسْتَدَلِّ بِهَا. وَلَا يَرِيبُكَ أَنَّ بَعْضَ الْمُقْتَرِنِ بِالْوَاوِ فِيهَا لَيْسَ بِثَامِنٍ فِي الْعَدَّةِ لِأَنَّ الْعِبْرَةَ بِكَوْنِهِ ثَامِنًا فِي الذِّكْرِ لَا فِي الرُّتْبَةِ..." ([2])

جانب الذوق وسياقات الاستعمال :

نورد هنا بعض الآراء لمن أشاروا إلى قضية هذه الواو، ولكنهم لم يثبتوها ولم ينفوها، وإنما استعرضوا آراء المثبتين والمنكرين، وزادوا عليها بعضاً من تعليقاتهم على هذه الظاهرة. ومن هؤلاء من المفسرين الطاهر بن عاشور الذي جعل هذه القضية من المسائل الأدبية ذات اللطائف والأسرار البلاغية، عندما تحدث عن البشارة لأهل الجنة، في قوله تعالى: {حَتَّى إذا جاؤُها وفُتِحَتْ أَبْوابُها} [الزمر/ 73] قائلاً : " وَأَمَّا اقْتِرَانُ الْوَاوِ بِالْأَمْرِ الَّذِي فِيهِ مَعْنَى الثَّامِنِ كَمَا قَالُوا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَفُتِحَتْ أَبْوابُها} [الزمر/ 73] . فَإِنَّ مَجِيءَ الْوَاوِ لِكَوْنِ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةً، فَلَا أَحْسَبُهُ إِلَّا نُكْتَةً لَطِيفَةً جَاءَتِ اتِّفَاقِيَّةً. وَسَيَجِيءُ هَذَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّمَرِ {حَتَّى إذا جاؤُها وفُتِحَتْ أَبْوابُها} [الزمر/ 73] وَجُمْلَةُ: وَبَشِّرِ- الْمُؤْمِنِينَ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [التَّوْبَة/111] عَطْفَ إِنْشَاءٍ عَلَى خَبَرٍ. وَمِمَّا حَسَّنَهُ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْخَبَرِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ الْعَمَلُ بِهِ فَأَشْبَهَ الْأَمْرَ. وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْأَمْرِ **بِتَبْشِيرِهِمْ** إِبْلَاغُهُمْ فَكَانَ كِلْتَا الْجُمْلَتَيْنِ مُرَادًا مِنْهَا

(1)– عبد الراضي(مُحَمَّد أحمد): الواو في العربية بين الصوت والدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، (1997م)، ص115.

(2)– الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير: 43/11

مَعْنَيَانِ خَبَرِيٌّ وَإِنْشَائِيٌّ. فَالْمُرَادُ بِالْمُؤْمِنِينَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمَعْهُودُونَ مِنْ قَوْلِهِ: }إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ{ [التَّوْبَة/111] . و**الْبِشَارَةُ** تقدّمت مرارًا..." ([1])

ولعل هذه (**البشارة**) التي ذكرها صاحب التحرير والتنوير هي التي أخذها الدكتور تمام حسان، عندما سمّى هذه الواو (**واو البشرى**)، بل لعلّ هذه الفكرة هي التي أوحت للدكتور تمام بما أبداه من رأيه في هذه المسألة، إذْ قرنها بما سماه "الذوق الاستعمالي." وحكّم فيها الذوق، وأتى بالمصطلح الجديد (واو البشرى) مميّزاً بين المعاني النحوية والذوق الاستعمالي، إذ يقول: " للواو في اللغة العربية عدد من المعاني، منها العطف والحال والقسم والمعية... وهذه المعاني نحوية، أي يأتي كل منها بالمعنى المراد بحكم القاعدة النحوية المعاني النحوية وطبقا لاستصحاب الأصل، ولكن الذوق الاستعمالي لا يقنع بالاقتصار على الاستصحاب، وإنما يلجأ في معظم الأحيان إلى العدول عن الأصل للوصول إلى مؤشر أسلوبي معين يرمي من خلاله إلى غرض ما، ومن هذا الأسلوب ما نجده في الاستعمال القرآني من استعمال الواو الزائدة للدلالة على البشرى... وقد شغل المفسرون رحمهم الله بالواو العاطفة التي في (وفتحت) من قوله تعالى: { حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا.....الآية.} [الزمر/73] فلم يروا أن مجرد فتح الأبواب لا يُعَدّ من قبيل التكريم لأنه حدث في استقبال أهل النار أيضاً، وأنّ هذا الفتح لم يكن إلاّ تمهيداً لما سيقوله خزنتها في الترحيب والوعد بالنعيم والخلود، وهو المقصود بقولهم: { سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين..} [الزمر/73]." ([2])

لقد أضاف الدكتور تمام حسان مصطلحاً جديداً لهذه الواو، وجعلها زائدة لغرض البشرى لأهل الجنة.. كما أشار إلى ظاهرة بلاغية أسلوبية تتمثل في العدول عن الأصل، وميّز بين المعاني النحوية كالعطف والحال والاستئناف، هذه المعاني التي تخضع لحكم القاعدة، وبين ما سمّاه (الذوق الاستعمالي) الذي يدل على معان وأغراض تبينها سياقات الاستعمال ويتم استنباطها بالذوق..

كما أشار كثير من المحدثين إلى كون الواو للحال أولى من كونها للعطف، وبيّنوا أنّ السرّ في وجود الواو (وفتحت أبوابها) في شأن أهل الجنة ، وعدم وجودها (فتحت) في أهل النار دليل على أن أبواب النار كانت مغلقة فلمّا جاء أهل النار فُتحتْ لهم، وأمّا أبواب الجنة فتظل مفتوحة قبل مجي المتقين إليها، وكأنها هي تنتظرهم.. وتحدثوا عمّا في ذلك من اللطائف البلاغية. ([3])

خلاصة واستنتاج :

تبيّن لنا ممّا سبق أنّ ثمة خمسة مذاهب للعلماء في هذه الواو: فالمذهب **الأول** هو مذهب من يمعن في إثباتها، وأكثرهم في ذلك ابن خالويه والحريري ؛ **والثاني** هو مذهب من يمعن في ردّها ردّاً مطلقاً وجوداً ومصطلحاً وتخريجاً، وأكثرهم في ذلك ابن هشام ثم ابن القيم ؛ **والثالث** هو مذهب من يردّها تخريجاً ودلالةً، ومنهم الزمخشري وأبو حيان ؛ **والرابع** هو

(1)- الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير: 43/11

(2) – د. تمام حسان: حصاد السنين في حقول العربية، عالم الكتب، القاهرة (2012)، ص181-182 .

(3) – منهم مثلاً: من المفسرين: الطاهر بن عاشور (التحرير والتنوير، ص363) ، ومن البلاغيين: د. حسن طبل (أسلوب الالتفات في البلاغة القرآني، ص140).

مذهب من يتوسط ويعتدل في رأيه، فلا يثبتها ولا يردّها وإنما يصفها ويشير إلى بعض دلالاتها، ومنهم الطاهر بن عاشور وبعض المحدثين ؛ وأما المذهب **الخامس** فهو مذهب من ينظر في أبعادها الدلالية وأسرارها البلاغية وخصائصها الأسلوبية كالعدول عن الأصل إلى معان وأغراض ومقاصد مستمدة ممّا توحي به سياقات استعمالها، وهو ما نجده عند الدكتور تمام حسان وأكثر المحدثين من النحاة واللغويين والمفسرين..

ونحن نرى أنّ تسمية هذه الواو بواو الثمانية في مواضع معينة من القرآن الكريم ليس ممّا تحدث عنه أوائل العلماء من النحاة والمفسرين وغيرهم، ولكن هذا المعنى لم يثبت بالدليل نفيه ولا تأكيده عن كلام العرب، ولا يضير أن يكون من بين معانيها ودلالاتها، من منطلقات لغوية وأدبية يتواشج فيها النحو والبلاغة والأسلوبية، بما يمكن أن يحقق الكشف عن أسرارها ولطائفها البيانية التي تتجاوز حدود الإعراب والوظائف النحوية إلى مقاصد هذه الآيات وعمق دلالاتها. والقرآن الكريم حمّال أوجه، وما نضج البحث فيه وما احترق كما يقول العلماء، وهذا يعني أنّ التخريج النحوي وحده لا يكفي للوقوف على أسرار الواو في هذه الآيات، كما في غيرها من الآيات الأخرى الحبلى بكثير من المعاني والأغراض والدلالات في هذا الباب وغيره.

وممّا يزيد من ضرورة النظر من عدة جهات إلى مثل هذه الظواهر في لغة القرآن الكريم، كون مثل هذه الأنماط التعبيرية متداولاً في الاستعمال العربي، وقد سبقت الإشارة إلى اهتمام العرب بالعدد السابع وتخصيصه من دون غيره، مع ما ورد من ذكْره في القرآن الكريم والحديث الشريف بصيغ متعددة لا يمكن إنكارها.. فهذه كلها إشارات تجعل من النظر في عمق دلالات النصوص وحُسْن تأويلها سبيلاً إلى حُسْن فهمها..

وختاماً، نقول إنّ النظرة اللغوية الخالصة القائمة على التخريج النحوي تردّ كون هذه الواو للثمانية، على حين أنّ النظرة الأدبية البلاغية (الذوقية) تتفرع إلى منحييْن: أحدهما قوة إثبات دلالة هذه الواو على الثمانية، على ما قد يكون فيه من المبالغة، والثاني توسط واعتدال وعُمْق نظر يتغيّر بتغيّر الاستعمال وتنوع السياق بما يتلاءم مع الأغراض والمقاصد والدلالات، خصوصاً إذا تعلق الأمر بالآيات القرآنية بما فيها من اللطائف والأسرار..

– المصادر والمراجع مرتبة ألفبائياً:

- الثعالبي، أبو منصور: (عبد الملك بن مُحَمَّد بن إسماعيل): فقه اللغة وسر العربية، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، ط1 (1422هـ - 2002م.)
- الحريري (مُحَمَّد أبو القاسم): درة الغواص في أوهام الخواص، تح: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة النهضة (1975م).
- حسان (د. تمام): حصاد السنين في حقول العربية، عالم الكتب، القاهرة (2012).
- أبو حيان (الأندلسي- النحوي): البحر لمحيط: بعناية صدقي مُحَمَّد جميل، دار الفكر – بيروت – لبنان (1412هـ/1992م)
- الرازي: (فخر الدين):: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب):: المطبعة البهية – مصر (د. ت)
- الزركشي (بدر الدين): البرهان في علوم القرآن: تحقيق مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم – مطبعة عيسى البابي لحلبي – مصر / الطبعة الثانية (1972م).

- الزركلي : (خير الدين بن محمود ، الدمشقي) : الأعـلام : دار العلم للملايين ، ط/15 (2002 م).
- الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر): الكشاف، تحقيق: أحمد عبد الموجود، وعلي مُحَمَّد عوض، مكتبة العبيكان ط1، 1998
- السهيلي (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله): الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن تحقيق عمر عبد السلام ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/1 (1421هـ/ 2000م)
- السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن): المزهر في علوم اللغة وأنواعها: طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (د.ت)
- الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس(1947م).
- طبل (د. حسن): أسلوب الالتفات في البلاغة القرآني، دار الفكر العربي (1998).
- عبد الراضي (مُحَمَّد أحمد): الواو في العربية بين الصوت والدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، (1997م).
- الفيروز آبادي (مجد الدين): بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : تحقيق الأستاذ مُحَمَّد علي النجار، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني – بيروت - القاهرة – (1398 هـ/1978م) .
- ابن قيم الجوزية (شمس الدين مُحَمَّد بن أبي بكر، الدمشقي): بدائع الفوائد: ضبط أحمد عبد السلام: دار الكتب العلمية– بيروت لبنان/ط1 (1414ه/ 1994م)
- ابن قيم الجوزية: التفسير القيم : دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط1 (1410 هـ)
- ابن هشام (جمال الدين بن عبد الله الأنصاري): مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: تح مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد– المكتبة العصرية، صيدا (1416ه / 1996م)